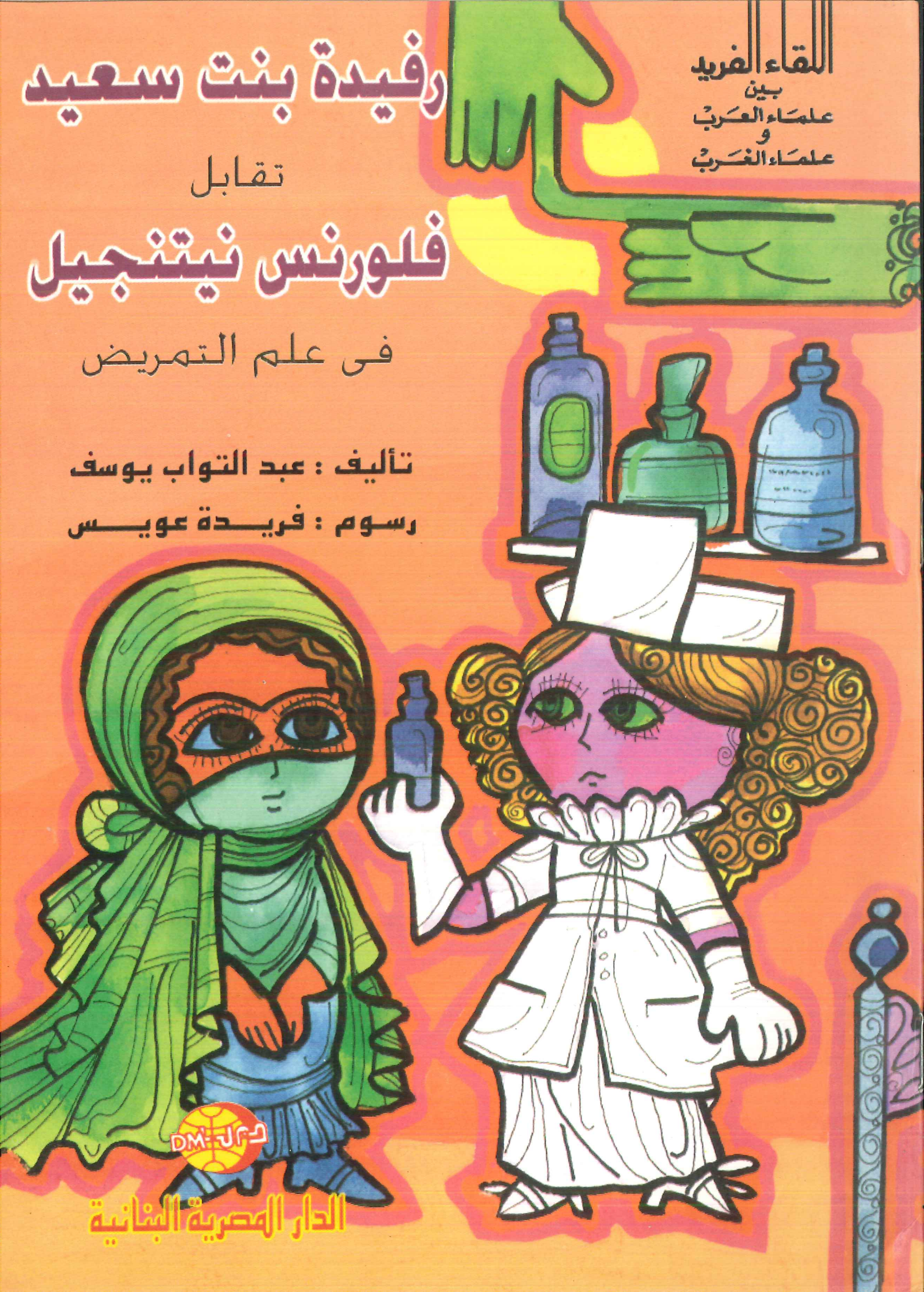


اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

رفيدة بنت سعيد

تقابل

فلورنس نيتنجيل

فى علم التمريض

تأليف : عبد التواب يوسف
رسوم : فريدة عويس

الدار المصرية اللبنانية

اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

رُفيدة بنت سعيد
تقابل
فلورنس نيتنجيل
فى عِلمِ التمريض



تاليف : عبد التواب يوسف

رسوم : فريدة عويس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

كانت عجوزًا ، لا تقدر على السّير .. عمرها تسعون عاماً .. إذا خرجت فى عربتها للنُّزهة فى الحَدائق العامة فى لندن تجمع الناس حولها ، يتسابقون إلى لَمْسِ ثوبها أو تَقْبِيل يدها ..

وتردَّدَ على دارها العظماءُ ، والسَّاسَةُ ، والقادةُ والأُدباءُ .. وذات ليلة ، خَلا قصر « فلورنس نايتنجيل » من الضيوف ، ولكنها رأت - كما يرى النّائِم - سيدة ترتدى ثياباً عربية قديمة ، تجلس فى جانبٍ من البَهْوِ الكبير ، فأقبلتْ عليها صاحبةُ البيت تبتَسِم ، وتُحيّيها .. وقالت « فلورنس نايتنجيل » فى هدوء :

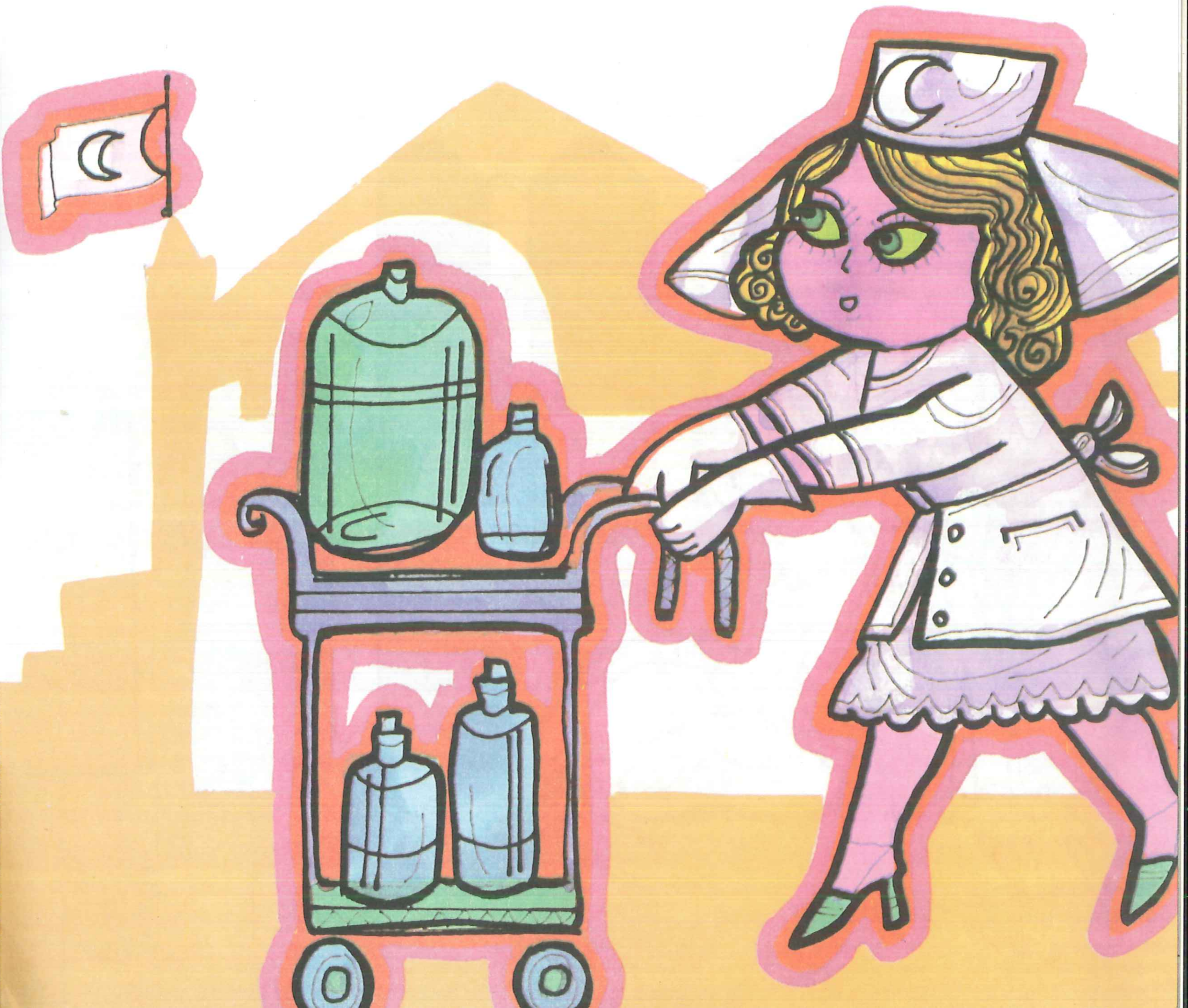


— مرحباً .. وأهلاً بكِ ، لعلّك صحفيّة تُريدِينَ أن تكتبى عنى شيئاً ؟! .. الحقيقة أننى ضِقْتُ بالكثير الذى كُتِبَ عنى .. ردَّدْتُه عشرات المرّات .. ولدت فى فلُورنسا بإيطاليا ؛ أخذْتُ منها اسمى « فلورنس » ، وأنا من أُسرة إنجليزِية غنية .. درستُ العلوم والآداب والرياضيّات والمُوسيقى ، لكى أُصبح سيدة مجتمع .. طفت الدنيا فى رحلات سياحِيَّة : أَتعرّف على الآثار ، وأَشْهَد الأُوبْرات .. لكن المكان الذى كان يُمتِعُنى هو : المستشفيات .. بهرنى عندما زُرْتُ آثار مصر أن أَرَى على الجُدران صور الممرِّضَات ، يُعْنَيْنَ بالمَرْضَى .

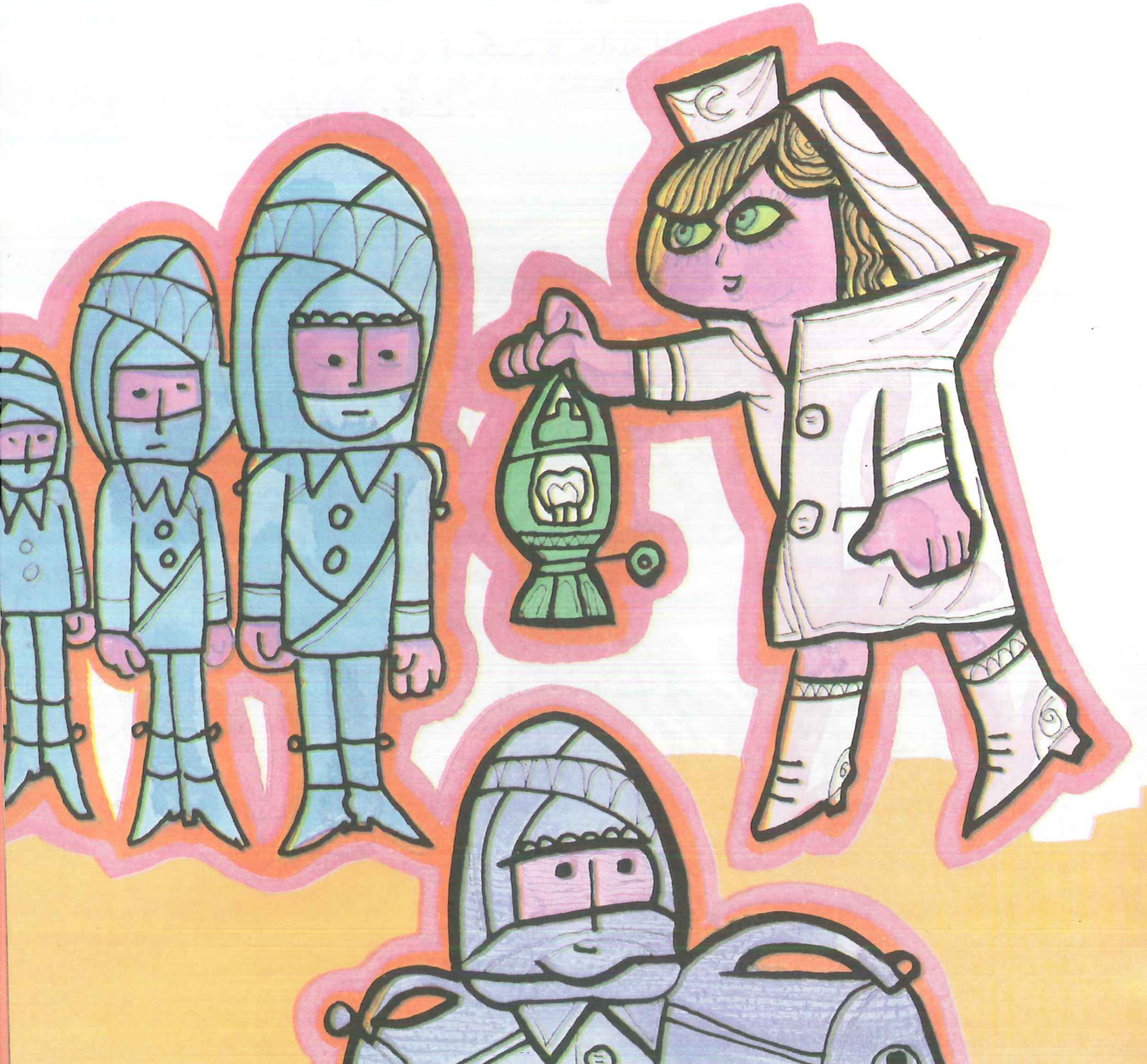


تمنَّيت عندما رجعتُ لو حوَّلْتُ قصر أَبى إلى مُستَشْفَى .. تقدّم للزَّواج منى كثيرون ، رفضتُ واعتذرتُ ، لأَننى قرّرت أَن أَهبَ نفسى لرعاية المُتعَبين والعَجَزة والمُتأَلمين والمُعَذّبين .. وعندما أَعلنتُ أَنى سأُصبح مُمرضة ذُهِلَ الجميعُ ، واعترضتْ أُسرتى وثارَتْ عَلَيَّ .. وكنت عازمة فى إصْرار على تنفيذ رغبتى هذه ..

تدرَّبتُ فى معاهِد التَّمْريض فى ألمانيا ، وزرتُ مؤسَّسَاتِه فى فرنسا ، وعندما بدأت العمل كنت خبيرة .. وعندما أنشأْتُ « مستشفى النّساء العاجزات » فى لندن قالوا : إنى أَحدثتُ ثورةً فى تاريخ العلاج والمُستشفيات ، لكن شُهرتِى ترجع إلى تطوُّعِى للعَمل



مُمرضةً للجنود ، حين نشبتْ حربُ القِرْم عام ١٨٥٤ – وقد أَنقذَتْ جُهودى المئات من الموت ، كَما خففَّتْ عذاباتِ الأُلوف .. كنت أَخرجُ إليهِم ، نهاراً ، وليلاً كذلك ، حاملةً المصباح ، حتى اشتهرت بهذا اللقب، ومرضتُ ، ولم أَهتمَّ بمرضِى ، بل بقيتُ بجوار المرضى أَعمل من أَجلهم .. وكانُوا يريدون أَن أَعودَ إلى إنجلترا فى بارِحَة .. رفضتُ . وعدتُ بعد أن عاد آخر جندى جريح .. لم أُعدْ بِشكل رسمىّ ، وإن كانت الجماهيرُ قد استقْبلتْنى كالفاتحين – وأَنفقتُ مكافأتى على إنشاء « دار نايتنجيل » لتعلِيم التَّمريض .. وعندما اعتزلْتُ أَلَّفتُ



كُتُباً فى مجال اهتمامى ، وقد مَنَحتنى بلادى وسامَ استحقاقٍ ، وعرفَتنى الدنيا على أننى « أَول مُمرضة فى تاريخ الحروب فى الدنيا » ..

– ٢ –

تنبّهتْ « فُلُورَنس نايتنجيل » إلى أَن ضيفتها تسمع فى أَدب ورِقّة ، لكنها لا تكتبُ – كصَحَفِيَّة – ما تقولُه ، ورأَت على مَلامح وجْهها الدَّهْشَة .. بعض الدهشة .. حين قالت : إنها أَول مُمَرّضة فى تاريخ الحروب فى الدنيا ، فسكتت « حاملة المصباح » كما يسمُّونَها ، ونظرت إلى ضيْفتها .. وقالت :



— معذرة ، لقد تركتينَنى أَمضى فى حديثى .. أَعرفُ أَننى أَصبحتُ عجوزًا ، ورُبَّما ثَرْثَارة ، لكن ماذا يتبقى لنا غير الذكريات ؟ .. نَرْوِيها ونحكيها مرة بعد مرة ، لا نشْبَع .. وزُوَّارِى يُطالبُوننى بأَن أُعِيد وأَزيد ..

اغفرى لى أَنى أَطلتُ ، لكننى تصوَّرْتُكِ تُريدِينَ أَن تعرفى حكايتى التى عَرَفَتْهَا كُلُّ الدنيا ..

أسفة : أُريد أَن أَسمعك ..

قالت الضيفة :

— لقد استمْتَعْتُ كثيرًا بحديثك ، وقصتك .. والحق أَنه شىء رائعٌ أَن



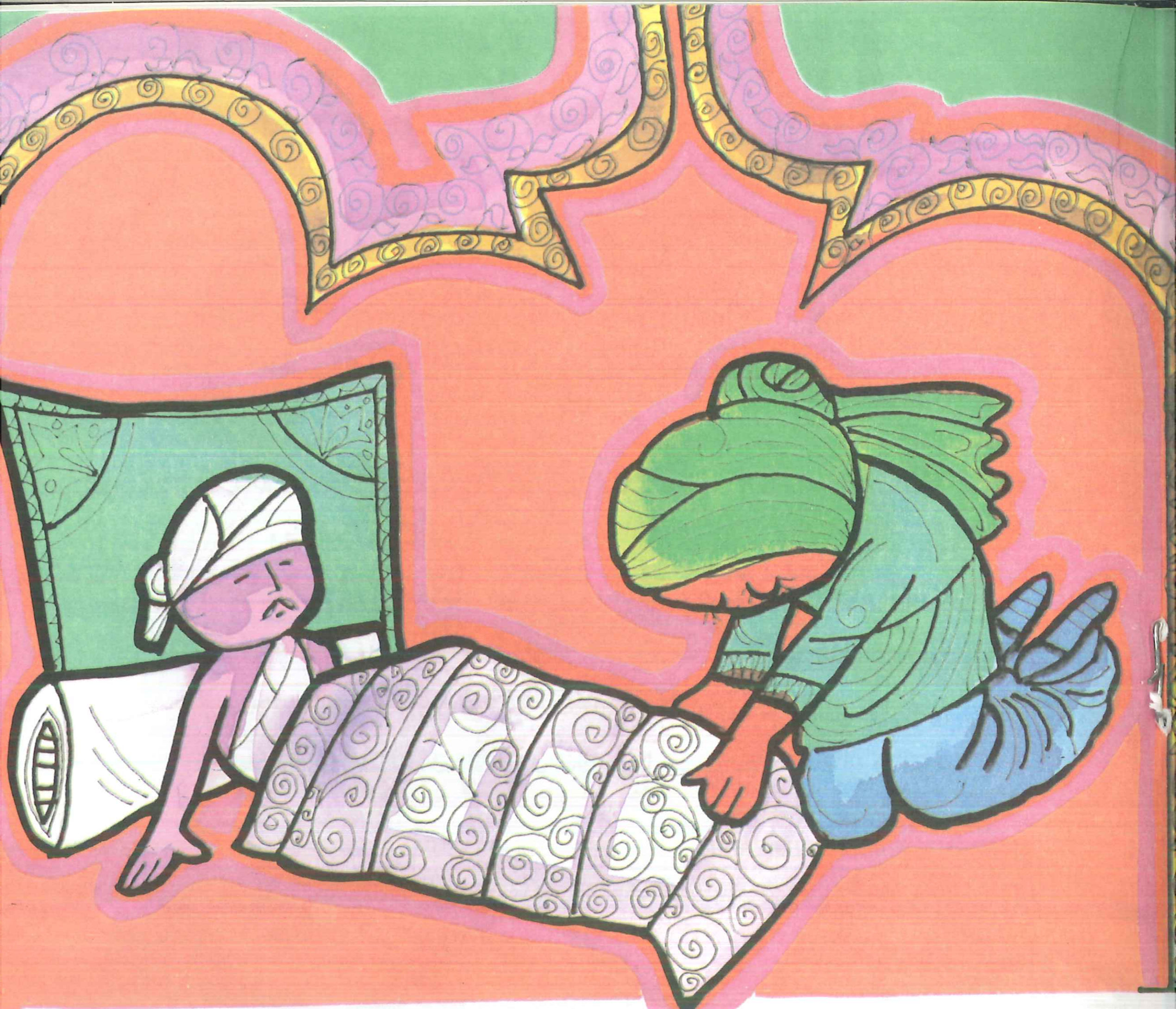


تنْهضَ إنسانةٌ غَنِيَّةٌ ثَرِيةٌ بهذه المسئوليَّات ، وأَن تقوم بكل هذه الأَعباء .. وأَعرفُ جيدًا الجهد الذى يُبْذَلُ فى هذه المُهمّات البَالغة الصّعوبة ..

سأَلَتْهَا : من أَيْن لك أَن تعرفى ؟!

أجَابَتْ : لأَن السّماءِ هَدَتْنِى إلى هذا العمل منذ أكثر من ١٢ قرنًا !

هتفت فلورنس نايتنجيل : ماذا ؟! عملتِ بالتَّمريض فى الحُروب قبل ١٢٠٠ سنة ؟!



— ٣ —

اعتدلت السيدة الجليلة « رُفَيْدَةُ بنت سعيدٍ » فى جلستها قبل أن تقول فى بساطة وهدوء :

— نعم .. وكان بودّى لو أَن الناس عرفوا حكايتى .. رُبما سَمِعْتِ بها فى مصر لو أَنكِ زُرْتِ الأَزْهَر ، وسمعتِ بعضًا من سِيرة ابن هِشام التى تَرْوِى تاريخ حَياة الرَّسُول محمد نَبِىِّ الله ، عليه الصَّلَاةُ والسلام ..

— لا شك أَنىِّ سمعتُ عنكِ .. أَنْتِ « رُفَيْدَة بِنْت سَعِيد » ؟!

— أنا هى ..

ـ لم أَعرِف عنكِ الكثير .. ضَنُّوا عليكِ بالحديث الذى تستَحِقِّينَهُ .. هكذا كانت مهمتُنا الجليلة ، لا تأْخُذ حقَّها من الدّعاية والإِعلان ..

ـ ما كُنْتِ .. ولا أنا بحاجة إلى طبول تُدوِّى لعملى ، لأَننى أَدّيْتُه لِوَجْهِ الله ..

ـ ولكن : أَين كانت مستشفياتُكِ يا رُفَيْدَة ؟!

وضحكتْ رُفَيْدَةُ للسُّؤال ، وأَجابت :

ـ كانت مُستَشْفَياتى دائمًا خيامًا فى الحرب والسَّلْم .. الخِيام كانت بُيوتَنا ومُستشفياتِنا .. كنتُ أُرافِق فى الحرب جَيْشَ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأُسعِف المُقاتلين ولأُداوِى الجَرْحَى وأَرْعَى المُصابِين .. المسلمُون يذكرُون أَنه عندما جُرِحَ سَيِّدُ الأَنصار « سعدُ





ابنُ مُعاذٍ» فى واقعة الخندق ، وقال الرسول ﷺ : « اجْعَلُوه فى خيمةِ رُفَيْدَة ، رضى الله عنها » .. كانت هذه العِبَارة هى الوِسَام الذى حصلتُ عليه ..

— ٤ —

ظهرت الدَّهشةُ على وَجْهِ « فُلُورَنس نايتنْجيل » ، فالعالم كله يُرَدِّدُ أَنَّها أَول مُمَرِّضَة فى ميدان الحرب فى كل التاريخ . وقد تذَكَّرتْ أَنها سَمِعت عن « رُفَيْدَة » عندما زارَتْ مصر ، ودخلتِ الأَزهَرَ الشريف وسمعتْ حديث « رُفَيْدَة » من شُيُوخِه ، لكن المعارك التى خاضَتْها مع الجَرْحَى والمُصابِين أَنْسَتْها الحديثَ وصاحِبَته .. وكان رائعاً أَن تذْكُرها

تِلك السيدة العظيمة أولَى مُمَرِّضَات معارك الحروب فى الدنيا : « رفيدة بنت سعِيد » ..

وسأَلتها « نَايْتِنْجيل » :

— وهل كُنتِ تقُومِين بنَفْسِ المُهِمَّة فى زمن السلام ؟

— بالطبع .. وكان ذلك أَسهل وأَيسر .. كانَتْ خيمتى مُسْتَشْفَاىَ . تضمُّ العَجَزَة والبائسين ، أَخْدُمُهم ، وأُخَفّف آلامهم .. وكانت خيمتى سلْماً وحَرْبًا تمتلِيء بقَوارِيرِ الدَّوَاء ، وأَكيـاس العُشب ، والضِّمادَات ، كانت ما تُسَمُّونَهُ « مُستشفى » ، كان مستشفىً عسكريًّا أثناء الحرب ، ودار عِلاج أَيام السَّلْم ..



— كان يَجْدُر بالدنيا ، وبالناس أَن يُعطوكِ حَقَّكِ .. فقد تعرَّضْتِ لمخاطر كثيرة أَثناء الحرب ، وخالَطْتِ المَرضى ، و ...

— كل ذلك كان يَهُون ، من أَجل الدّعوة .. كان ذلك بسيطاً إذا قُورِن بعمل هؤلاء المُصَابِينَ الذين ما إن أُضَمِّدُ جُروحَهم حتى يسرعوا كى يحمِلوا السلاح من جديد ، من أجل دعوةِ الحق ، ودين الله .. ومِنْ بَيْنهم خَالد بن الوليد ، الذى أَشار إلى ذلك فى مرضِه الأَخِير .. حيث قال : إنه ما مِن شبر فى جسمه إلا وفِيه طعنةُ رُمْحٍ أَو ضَرْبَةُ سَيْفٍ ، ولا شكَّ أَنّى سَاهَمْتُ فى تَضْمِيدِ كثير من هذه الجروح .

سأَلَتْهَا فلورنس نَايتِنْجِيل :





ـــ أَلَمْ يُقِيمُوا لكِ تمثالاً كما فعلوا معى ؟! .. أَلم ... ؟!

ابتسمت رُفَـيْدَةُ ، وهى تقول :

ـــ ما حاجَتِى به ؟

.. إنَّ كل مُمَرِّضَـة عربية تعملُ فى مُستشفى هى بمثابة تمثال حَىٍّ لى ، يتحرَّك ، ويَعْمَل ، ويُسْعِف ، ويُواسِى .. أَمّا هذه الأَحجار التى تُزيِّن الميادين فلا حاجة لى بها .. فقط : تمنَّيت لو أنّ دارًا للتَّمريض فى الوطن العربى حَمَلت اسمى ..

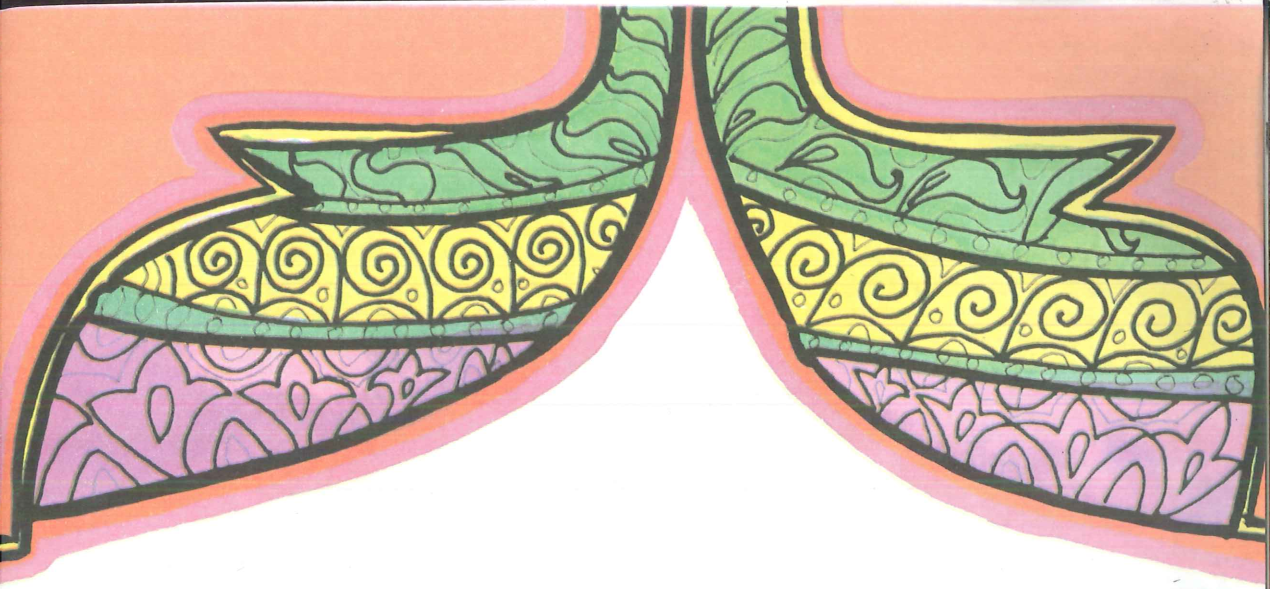
سأَلتها نايتِنْجيل :



— والشُّعَراء ؟!.. إن شاعرنا « لُونْجِفلُو » أَنشَدَ فى شَخْصِى قصيدة يحفظها الأطفال فى المدارس ، وتُشِيد بمِهنَتنا وتقدِّر دَورَنا و ..

ضَحِكَتْ رُفيدة وقَالَتْ :

— لقد شُغِل أَغلب الشعراء فى بلادنا بالخُلفاء والحكام والسّلاطين ، وشُغِلْتُ عنهم بِعَمَلِى ومُهمتى .. مع أَننى قمتُ بتمريض كثيرين منهم ...



بَدأَ مَوكبُ الضُّيوفِ يَفِدُ على قصر « فُلورَنس نايتنْجِيل » . وأَحدثوا ضجيجاً كبيرًا أَيقظها من غَفْوَتها ، فى البهو الكبير .. وعندما فتحَتْ عينيها راحت تتطلّعُ إلى مَنْ حَوْلَها .. كانت تبحثُ عن « رُفَيْدَةَ بنت سَعِيد » التى جلست إليها هذا الوقت المُمْتِع ، والتى ذكرتها بذلك الحديث الجميل الذى سمِعَتْهُ حين زارَتِ الأَزهر الشريف عام ١٨٥٠ ، وسأَلت واحدًا من شُيوخِه عن المُمَرِّضَات فى تاريخ العربِ والإِسْلامِ ، وذكر لها الرجل اسم « رُفَيْدَة بنت سَعِيد » أَوَّل مُمَرضة فى ميدان القتال فى تاريخ الإِنسانية .